٤ – أومن بالإنسان !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

عود لتوضيح معنى جليل — دنيا المهندسين — صوفية مادية — إلى المتدينين على المباحث الروحية — نتائج لقانون التسلسل والترقي — ترضية لا بد منها — إشارة قرآنية عجيبة — ضروب من التحول — أدوار للمرفة وأدوار للسلم — إنسانية الشرق المضيعة — العلم دين — أين رجال القمة في الفكر والخلق ؟

يدفعني التفاوت الكبير الذي أشرت إليه سابقاً بين قوة بعض الآلات التي صنعها الإنسان من الحديد وغيره من المعادن وبين قوة الحيوان والإنسان نفسه، إلى أن ألح بالبيان والتوضيح على هذا الموضع لأثبت به الحجة في الدعوة إلى الثقة بالإنسان بعد أن استطاع أن يصنع موجودات عظيمة قوية تخلفه وتخلف الحيوان في السرعة والاحتمال والانبعاث والدقة في الحساب والرصد وقياس الدقائق وإبراز الخفايا وجلب المنافع والأضرار.

وهذا لا يعني أن هذه الآلات مستقلة بحياتها ومدركة لما تفعله، ولكنه يعني أن الإنسان مد حياته وتفكيره إليها، وأقامها مكانه في رصد حوادث الحياة وأداء بعض أفعاله فيها كي يتفرغ لغيرها ويتجه إلى فتوح وغزوات جديدة في مجاهل الكون ...

ولست أستطيع أن أغفل هذا التفاوت العظيم بين هذه الآلات، وبين النماذج الحية من أجسام الحيوان التي اتخذها الإنسان أساساً لعمله وطرق إيجاد ما أوجده بدون أن أصل منه إلى مدى بعيد من الاستنتاج قد ينفع العلم وينفع الدين وينفع علم الاجتماع في تحديد وضع الإنسان ...

وينبغي قبل كل شيء أن أقول لمن عساهم يخشون من مغالاتي في تقدير قيمة الإنسان وإعجابي بما صنعه من الآلات التي فاقت قدرة الحيوان وقدرته هو على العمل والاحتمال آلاف الأضعاف: إنني لا أبغي من وراء ذلك إلا لفت أنظار الغافلين إلى قدرة الفكر الإنساني وإلى وجوب تمجيده من السفساف الحقير من التصرف وإطلاقه يرود وينظر ويعمل في ملكوت الطبيعة ...

ولا أقصد بتمجيد الفكر الإنساني إلا تمجيد بارئه وواضع أسراره في هذا الجسم المحدود الضئيل ... فلا يتوهمن متوهم أنني سأخرج بغلوي في تمجيد الإنسان إلى شيء أشبه بإشراكه في الخلق والإيجاد، فإنني قد حددت هذا النوع في مقال سابق بأنه آلة في يد الباري يتمم بها التنويع والتفريع في خلق المادة وتصورها.

ولا يعني غير هذا بعد أن رأيت وفكرت في أعمال تلك الطائفة المجيدة التي لم يلتفت إلى وضعها في الحياة بعد ولم يعرف لها خطرها في تحقيق الغرض من خلق النوع ولم ينظر إليها ولم تنظر لنفسها نظراً صوفياً ... وأعني بها طائفة المهندسين ... أولئك الشعراء الصامتين الذين يرسلون قصائد مجسمة ويفعلون الأعاجيب من المواد المبعثرة المشوشة المختلطة الملقاة بدون نظام وتنسيق، ويقيمون منها هذه الأشكال الموزونة المصقولة المنوعة التي عملت فيها آلاف العقول والأيدي بالتلوين والتزيين والإخراج الفني النني باللفتات الذهنية واليقظة لألوان الشفق وأفواف الزهر، ومزج الأضواء والظلال ...

أو يقيمون أجساماً آلية تنبض بالنار والبخار وتمضي بهما أو بالكهرباء وتضيف إلى عالم الحركة في الأرض قوى أخرى تملأ مسمع الزمان مع كل ما يدور فوق وتحت ...

أولئك الذين تسير أعينهم على مواقع يد الله يلقطون أسرارها من غمار الحياة الزاخرة وعباب المائع و « المتبلور » والجامد، ثم ينظمون كل هذه الأفانين ويتخذونها أساساً لقوة التقليد وقدرة الابتكار التي في أفكارهم وأيديهم

أولئك الذين يسيرون على أسلوب الله من العمل في المادة مع الصمت ... ويتلقون فيوض المواد والقوى الطبيعية من يده الكريمة فيقسمونها ويوزعونها ويتممون ما أراده فيها ويجلون ما أخفاه في أطوائها وثناياها ثم يضعونها في الأرض مجلة منسقة متاعاً للعيون ومثابة للأجسام ومظهراً وتأويلاً لأحلام الروح في عالم الجمال

ولن ينتهي العمل الهندسي للإنسان في الأرض إلا بعد أن يملأ شعابها وهضابها وهواءها وماءها وسهولها وأوعارها بآثار يده وفكره. فإنه مخلوق برهن على أنه يصلح للعيش في اليابس والماء والهواء، وأنه لا شيء إلا وهو واجد فيه حقلاً ليده يعمل فيه ويأخذ منه ...

وإنني ما سمعت صوت قارىء واحد يتلو كلام الله في تمجيد ذاته العليا في محطة الإذاعة فتردد صوته جميع آلات الالتقاط

فى جميع الأنحاء وتبث ذلك التمجيد إلى زوايا الدنيا وأركانها وطبقات الجو إلا أحست أن الإنسان ابتدأ يؤدى رسالته وعبادته ويُنطق بها الجماد ويُسمع بها على رغم الأبعاد ...

* * *

تلك صوفية مادية حديثة ينبغى أن تكون من مظاهر التدين فى هذه العصور التى تسير فيها المدنية المادية بحياة الإنسان فى ساعة واحدة أضعاف ما كانت تسير به مدنيات العصور السالفة فى عشرات السنين ...

نعم إن أصول الدين واحدة ثابتة لا تتغير ، ولكن ما نشأ حولها بفعل جهالات الإنسان وتزيداته ينبغى ألا يجعلنا جامدين متحجرين فى طرق العبادات ، فنفهم أن عباداتنا قاصرة على الأشكال الموروثة بل يجب أن تكون انتقالات العلوم بنا سبباً فى أن نعبد الله بها وأن يزيد فكرنا فيه من أجلها . وتلك عبادة مطلقة من قيود الطقوس والرسوم والأشكال ... عبادة يستطيع أن يقوم بها من يسير بسرعة ألف ومائتى ميل فى الساعة ... ويرتفع إلى طبقات الجو العليا ، وينخفض إلى أعماق البحار السفلى ... ويتنفس فى أقصى الشرق فتسمع أنفاسه من أقصى الغرب ... ذلك الذى يستطيع أن يترك فى كل مكان كلمة تشهد بالله وينطق بها الأحجار والأشجار والماء والهواء ...

فبين العلم المادى والتصوف هنالك يجب أن يقف الإنسان الحديث ينادى الله وفى قبضة يده مفاتيح أسرار المادة ونواميسها وفى قلبه صلاة دائمة جامعة ... !

* * *

وهذه الصوفية المادية تمجد العلم المادى والعمل به وتخضع لدولة الأجسام ولا تثور عليها ولا تعطل قواها بل تنميها ، لأنها تعرف أننا ما خلقنا فى عالم الأجسام إلا لنعرف قوانينها ونؤمن بها

وينبغى أن نقول هنا لبعض المتزمتين بمباحث الروح الذين يفرحون إذا عثروا على حادثة غريبة لا يمكن تفسيرها تفسيراً مادياً ليتخذوها حجة على وجود قصد وعالم آخر وراء هذا العالم المادى : إن ما تتزمتون به وتتفقون حياتكم من أجله لا يمكن أن يبلغ مهما كثر إلى عشر معشار الحجج التى تستطيعون أن تأخذوها من ذلك العالم الظاهر الملىء بالعجائب والمعجزات التى لا تحتاج العقول معها إلا إلى حركة ارتداد إلى مبادئ الأشياء ، وإلا إلى اليقظة الدائمة لمراقبة كل شىء والدوران حوله

وما حاجتنا إلى أن نستمد من عالم غير مرئى حججاً إن رآها شخص فسوف لا يراها آلاف ! مع أن ما بين أيدينا وما خلفنا ملىء بالعجائب التى يراها كل فرد ، ويخضع للمنطق المستمد منها كل سليم الطبيعة غير شاذ ولا شارد . « وكأىٍّ من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون »

فنحن نستطيع بمجهد فكرى قليل أن نأخذ من هذا العالم المادى الظاهر أدلة كثيرة على أن وراءه عالماً آخر بل عوالم أخرى مجردة من قيود حياتنا هذه ولو لم نر من ذلك شيئاً ... فإن الرؤية ليست هى الطريق الوحيد إلى التصور والحكم

والنظرة العلمية المبنية على إدراك قانون الترقى وقوة التطور تبين لنا أنه ما دام قد وقف الإدراك بواسطة جسم من الأجسام عند حد الإنسان بعد أن تدرج إليه فى سائر أنواع الحيوان ، فينبغى أن يكون وراء الإنسان أفق حياة عاقلة أخرى هى بطبيعة سلم الترقى مجردة من الأجسام . وكما أن هذه الآثار والمشاهد البارعة التى نراها فى العالم المادى نتيجة لعوامل خفية نوعها وشكلها فلا بد أن يكون فى غير الأرض آثار ومشاهد أخرى هى نتيجة لعوامل ونواميس أخرى غير التى كان من نتائجها ظهور عالمنا الذى ندركه بحواسنا . وهذا هو اللائق باتساع الكون الذى أرضنا فيه كذرة رمل فى صحراء . فلا يصح أن تكون أساساً فى الحكم على جميع ما فيه

وهذا حكم نحكمه خضوعاً للفرضية الآتية التى تحل لنا هذا الإشكال وإن أوقعتنا فى غيره ... :

تخيل إنساناً خرج إلى الحياة أعمى أصم أبكم معدوم اللمس والشم ... فهل مثل هذا يكون لعالمنا وجود عنده ؟ بالطبع ، لا ... ولكننا مضطرون إلى أن نحكم أن عالمنا هذا موجود ولو لم يوجد فى حواس هذا المسخوخ ...

وكذلك نحن مضطرون إلى أن نحكم أن وراء عالمنا هذا عوالم أخرى ، ولو لم توجد لنا حواس تدركها ... لأن هذا هو الذى يتلاءم مع اتساع الكون واتساع قدرة المسيطر عليه ، واتساع عالم الفروض والصور فى بعض العقول

وقد أشار القرآن إلى معنى عجيب يتفتح معه خيالنا ويأخذنا فى عالم لا نهاية له من الفروض وإن كان لا طاقة لنا بإدراك ما فيه من الصور . قال : « أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه

أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ... »

وما تحته خط هو موضع النظر الطويل ، وباب للخيال المجنّح ... ولكنه خيال مطموس الصور لأنه لم يجد أصباغاً وألواناً ينتزع منها ما يريد أن يؤلفه ويركبه ويَفتَنّ في تهاويله وكيف ذلك وقد قالت الآية : « فيما لا تعلمون ... ! »

* * *

وينبغي لمن لم يدرك ألا ينكر على من أدرك ... فإن جوانب الكون واسعة ورسالات علم الله إلى العقول كثيرة ... وليست كل العقول قادرة على الغوص في أعماق الكون . كما أنه ليست كل الأجسام قادرة على الغوص في أعماق الماء . فمن لم يستطع السباحة والغوص في تلك اللجج والرجوع إلى الشاطئ فليلزم وليحذر حتى لا يغرق ويذهب في أهوال المعاني ...

وما في العالم « المتبلور » شيء تافه بالنسبة للعالم الذي تلتقي فيه أمواج المعاني ويعب عباب الفروض والغيوب والرموز ، ولكن ما فيه لا يكون أساساً لأحكام الحياة الدنيا ... وعقل الإنسان كطفل الأم : ينبغي ألا تطلقه في الخاطر والمزالق إلا إذا شب وكان له قوة واقتدار ...

ومن العقول نوع لا يعيش إلا في أعماق الكون . فإذا طفا على السطح وأخذ بظاهر الحياة اختنق وقلت فيه الحياة ، كالسمك الكبير ...

ومن العقول ما هو مساير لظاهر الحياة لا يتخلف عنها ولا يتقدم ...

ومن العقول ما هو واقف متخلف انقطعت به الطريق فلم يصل إلى العالم الفكري الموجود الآن في أذهان الأمم المتحضرة ، وهذا عقل محروم فاته كثير من رسائل الله إلى الفكر الإنساني

ومن العقول ما هو أسرع من الحياة بحيث يرى مشاهد آخر ساعة فيها كصور مكررة قديمة لا تثير في نفسه تطلعاً ، فلو خرج من الحياة لم يخسر شيئاً ولم يفته شيء ، وهذا هو العقل الفائق السابق

والنفس إذا عرفت قرار الحياة وأصولها لم تبال بما يحدث في فروعها من تلون وتبدل ، وما عند هذا الصنف من صور كمال الحياة أرحب من الموجود وأكمل . فهو يسير في مستحدثات الأيام كما يسير المرء في طريق معروفة له تردد عليها مراراً من كثرة فكره في الموجود والمعدوم وما يصح أن يوجد

وهذا قد يعمل في الحياة بجد وصبر ، ويسير كما يسير الغافلون بدفعة دولاب الحياة ، وطواعية لحركات سيرها بالناس . وإنما يطيع آمالها ويزاول أعمالها خضوعاً لقانونين عظيمين من قوانينها : وهما الأمل والعمل ...

وهكذا الطبيعة رسالات من علم الله إلى الفكر الإنساني العام . يتلقاها كل عقل حسب طاقته واتساع حوزته ، ويأخذ منها ما قدر ويسر له ...

فينبغي لمن لم يدرك ألا ينكر على من أدرك ... ينبغي لرجل الشارع ألا يجادل في عالم « أينشتين » أو « أديسون » أو النزالي ومن إليهم من العقول الفائقة التي أطلت على الأرض وكانت فيها كالثمرات التي تلقط أسرار نوعها وتحفظ بذوره وترقيها

* * *

وبين الإله الباري الكبير وما عنده من عوالم المعاني والقوى المجردة والكمالات التي لا تتناهى ، وبين عالم المواد والكثافات ، وقف الإنسان الثائه المتأمل الساعي وراء المعرفة حيناً من الدهر لم يتقدم فيه خطوات كثيرة ، ثم انقسم فريقين : فريقاً استمر في التفكير المجرد في الطبيعة وما وراءها ، وأدرك بعض اتجاهات الكون باللمحات والنظرات الشعرية الخاطفة ، وقنع بذلك حتى خرج من الحياة « عارفاً » غير « عالم » ولا « عامل » ...

وفريقاً أعياه التفكير المجرد ، ولم يجد له محصولاً يملأ يديه ويشهد له الناس بأنه أدركه وتقصه ، فانصرف إلى أنواع الحياة في الأرض وأشكال المادة يعبث فيها ويدور حولها ويخرج أسرارها حتى « علم » ثم أخذ يقلد ويبتكر

وكما أن الأقدمين كانوا ينظرون إلى أعمال الطفولة وحب استطلاعها الأشياء على أنها عبث ولعب لا طائل تحته ... كذلك نظروا إلى أعمال أكثر الرجال في المادة وتنويعها وملء الحياة بضجاتها وأصواتها على أنها عبث ولعب لا يليق بمن يسير إلى الموت والفناء . وكان المثل الأعلى للحياة الصالحة عندهم أن يطلّق الناس أعمال الدنيا ويذهبوا إلى المعابد والمعاهد يتلون الأوراد ويفلسفون ويرسلون الأشعار ولا يرفعون في الأرض حجراً على حجر ، فيكونون عنصراً مستهلكاً غير منتج يأخذون من الحياة أغذية وأعمالاً ، ولا يعطونها إلا أقوالاً وأشعاراً ،